محسن أطيمش

ليلة المسافر

يتقدم ، كانت خطاه
سئلما في الرمال الغريبه
تملأ الريح كفيه ، تنشر اشرعة حوله
انها ظلمة والمدى لا يبين ،
فيا ايها المتلفع بالليـــل ، ليس سوى الليل مركبة
ليس غير الهواجس حقل ، فلا تتئد
ولتفذّ المسير ، فبين الضفاف وبين الخطى
زمنٌ ممطر كلّ ماء الصبابة ، بين الخطى
لغة (هل تقول الذي يكره الليل اعلانه)
ان امرا تأرجح وسط الغصون ، ارتدى خضرة
دون ان تعرف الأرض ، ثم تناثر في الرأس ،
صار طبولا تدّق ، وكنت تحدثني :
(آه لو يأخذ النهر صوتي الى المنتهى)
وكنت بعيدا ، فلم اتبين حديثك ،.. مرتجفا ،
كان كل الذين عرفت كسعف النخيل
انها ليلة راجفه
تلك مرثية العشب ، كل كسعف النخيل
ثابت بين قرع الطبول ،
وانت بدأت خطاك ، فيا ايها المتلفع بالليل ،
ليس سوى الليل مركبة
فلتفذ المسير ولا تتئد .

* * *

أيبتعد الماء ؟ هل اهتدي بالرمال ؟ اتمشي الرمال
الى البحر ،
مثل السواقي ؟ ام اهتدي بالكلام القديم ،
ولي حكمة
كلما ارتجف الامر ، اعلن بدء الفناء
كلما تكبر الارض ، يكبر خطوي
والم شتات الزمان ، فايتها الريح ،
ايتها الظلمة اجتمعي
ان بين الاكف لمتسعا
والذي تعرفين
ساهر ، والضفاف ساهرة ، فاستقري
فما كل خطو بلا ضجة ، وما كل قول يضيع ،
فهذي الرمال صدى ، والمياه التـي تهرب الان
ترجعية
ان أفقـي حقل الطيـور ، وفـي راحتي نبعهـا
الابدي .

* * *

في الصباح رأته المياه
كان ممتلئا مثلها ، زرقة صافيه
والندى والطيور
تنشران الثياب الانيقة اشرعة
ــ : هل رأتك الحقول نبيا ؟
ان ما بيننا يتلون مثل الغصون
وها انت لون جديد
فمن اين جئت ؟
وكيف اهتديت ؟
قال لي :
اننا صورة واحده .

روبرت موزيل (Robert Musil) وعنوانها (Young Torless) التي تدور حول التمسا في ظل فرانتز جوزيف ، يقول لنا آسفا « ان تلك العلاقات ازدهرت ، بنفس الطريقة المؤلمة ، في اوربا الوسطى ، بقدر ما ازدهرت في بريطانيا او فرنسا » ! (ص ٤٧)

ومن هنا يذهب الى تصوير الشاب تيودور هرتسل بوصفه ابنـا مطيعا لاسرة متزمتة اخلاقيا من شعب متدين يعرف خشية الله . لكن الفتى « كمراهق ، عرف الاندفاق العارم للشهوات الدفينة ، فكـان صراع . » وفيما يبدو مما يرويه المستر ستيورات ، وجد تيـودور هرتسل حل الصراع في تاليه المرأة رومانسيا : « ان المرء لا ينبغي له ان يحول الفتيات من عذارى جميلات الى كادحات من اجل العيش مثلنا نحن الرجال . فالذي ينبغي هو ان يتركن ليخطون فوق المروج، ويقطفن الازاهر والورود ليضعنها في شعورهن » ! (ص ٤٨) والكلمات مـن مذكرات هرتسل ، اما المستر ستيوارت فيقول : « واذا ما كـانت رفيقة الشاب الوحيدة اخت فاضلة ، بات مثل ذلك التاليه شيئـا مفهوما . الا انه يمكن ان يكون خطرا . فبينما يوضع موضوع الحلم على قاعدة تمثال ، تزاحمنا المرأة الحقيقية بالمناكب في اوحال الطريـق . فالنساء كجنس يقسمن (في مثل هذا الضرب من التاليه) الى قبيلتين متناقضتين : الامهات والاخوات في الجانب الوضيء ، والمومسات في الجانب الوضيع . ومثل ذلك التقسيم اعداد سيء للزواج ومشجـع قوي على المغامرات المختلسة . لكن تلك المغامرات يصعب القيام بها في مدينة يكون الفتى الحالم معروفا فيها . وهكذا فانه لا يجد امامـه الا القيلولة الخانقة والليالي الطويلة الخاوية ... ورويدا رويدا يواجـه الفتى بالاختيار الصعب : ان يستسلم للشهوات ، او ان يكبح جماحها بصرامة . والبعض يستسلم . بيرون ، مثلا ، تحول الى دون جوان . ذلك طريق . لكن هناك طريقا اخر متطرفا . فالشهوات يكبح جماحها بحزام ضاغط . وبذا يولد رجل القوة . » (ص ٤٨)

لندن